مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 482 - 496 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الحشرات الطفيلية في التراث العربي(القمل والبرغوث)

Parasitic Insects in the Arab Patrimony (Lice and Flea)

ايت العسري عادل *
Ait El Asri Adil
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش (المغرب)
Faculty of Arts and Humanities, Marrakesh (Morocco)
aitelasriadil@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/06/28	تاريخ القبول: 2021/09/05	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

تتجلى إحدى وظائف الأدب في تصوير البيئة بعناصرها المختلفة بما في ذلك عالم الحيوان الذي خصص له الشعراء الجاهليون حيزا هاما داخل قصائدهم في المقطع المخصص للرحلة حيث كان الشعراء يستفيضون في وصف الناقة التي يمتطونها بالإضافة إلى وصف حيوانات الصحراء التي يصادفونها، لكن تطور الحياة الاجتماعية، وتغير نمط العيش، بالانتقال من البداوة إلى الحضارة، فرض على الشعراء العرب المتأخرين وصف حيوانات لم تذكر في القصائد الجاهلية، وذلك مثل الفأر والسنور والقرد بل إن الشعراء العرب تحدثوا عن الحشرات الدقيقة التي لا ترى إلا بصعوبة بالغة، ويتعلق الأمر بالقمل والبرغوث اللذين ورد ذكرهما في العديد من المؤلفات النثرية في العصر العباسي، وبذلك استطاع الأدب العربي القديم تجديد موضوعاته بما يتناسب مع البيئة الحضرية. ومن هنا سنسعى، من خلال هذه الدراسة، الكشف عن الأغراض الشعرية التي حضر فيها القمل و البرغوث، فضلا عن التصورات التي تشكلت عن هاتين الحشرتين داخل النصوص النثرية.

الكلمات المفتاح : شعراء جاهليون، قمل، برغوث، عصر عباسي، أدب عربي قديم.

Abstract :
Pre-Islamic poets gave animals a primordial place in their poems, in particular in the part of qasida devoted to travel, where the poets would describe the animals of the desert as is the case for the camel, the deer, but after the change of the mode of life of the Arabs in moving from nomadism to civilization, poets had been forced to cite new animals as well as tiny insects, such as lice and fleas which were also present in Abbasid prose. Thus the ancient Arabic literature could to renew its themes in proportion to the development of social life., we will seek, through this

* ايت العسري عادل: aitelasriadil@gmail.com

study, to reveal the poetic genres in which lice and fleas were present, as well as the perceptions formed about these two insects in the within the prose.
Keywords: Pre-Islamic poets, lice, fleas, Abbasid era, ancient Arabic literature.

مقدمة:

الشعر ديوان العرب، فهو الفن الذي أودعوه خلاصة تجاربهم وعاداتهم وأخبارهم، وقد حافظ الشعر العربي القديم على هذا الدور حتى حدود نهاية العصر الأموي حيث استطاع النثر، بأنواعه المختلفة، التربع على عرش الأدب العربي، مستفيدا من التحولات الثقافية التي أعقبت اتساع رقعة الدولة الإسلامية وما تلاها من انفتاح على ثقافات أجنبية، وقد كان من أبرز نتائج هذا الانفتاح، على المستوى الأدبي، ظهور أنواع سردية جديدة فضلا عن خوض الكتاب في موضوعات جديدة وتعمقهم في أخرى قديمة.

شكل الطفيليون أحد الموضوعات الجديدة التي تصدى لها الأدباء في النثر العباسي حيث كانت أخبارهم ونوادرهم مادة رئيسة في مجموعة من المؤلفات، ومن بينها كتاب "المستجاد من فِعلات الأجواد" للقاضي التنوخيّ، و كتاب"زهر الآداب وثمر الألباب" للحصري القيروانيّ، فضلا عن كتاب "التطفيل" للخطيب البغداديّ، وقد ركزت هذه الكتب على تطفل الإنسان على أخيه الإنسان بينما اتجهت مؤلفات أخرى، في مرحلة لاحقة، إلى دراسة تطفل بعض الحشرات الصغيرة على الإنسان كما هو الحال بالنسبة للبق والقمل والبرغوث حيث تمت دراسة كل ما يتعلق بهذه الحشرات الطفيلية، سواء من حيث البنية الجسمية أو خصائصها والظروف المساعدة على تكاثرها.

ولم يكن الشعر العربي القديم بمنآى عن التطورات التي أصابت النثر، فقد تأثر بفنونه وبموضوعاته، وهذا ما تعكسه محاولة بعض الشعراء تسليط الضوء على بعض الحشرات الطفيلية التي تميز البيئة الحضرية، خصوصا تلك التي تعد أحياء وبيوت الفئات الهامشية مرتعا خصبا لنموها وتكاثرها، ومن أبرز تلك الحشرات القمل والبرغوث، فجاء بذلك الخطاب الشعري متكاملا مع نظيره النثري من حيث تصوير هذه الحشرات الطفيلية.

-فما الأغراض الشعرية التي حضرها فيها وصف القمل والبرغوث؟

-وما الجوانب التي ركز عليها الشعراء في ذلك الوصف؟

-وما القضايا التي أثارها الكتاب عند حديثهم عن تلك الحشرتين؟

1-البرغوث و القمل في الشعر العربي القديم

1-1-الشكوى من البرغوث والقمل

جرت العادة في بعض قصائد الشعر الجاهلي أن يشكو الشاعر من طول ليله ومن السهاد الذي منعه النوم نتيجة مجموعة من العوامل النفسية، أبرزها العشق وطول التفكير في المحبوبة، ويضاف إلى هذا العامل سبب جديد فرضته حياة التحضر، ويتعلق الأمر بالبراغيث، وعن ذلك يقول أبو الشمقمق[1]:

يَا طُولَ يَومِي وَطُولَ لَيلَتِهِ فَلْيَهْنَ بُرغوثُهُ بِجَذْلَتِهِ
قَدْ عَقَدَت بَنْدَهَا على جَسَدِي وَاجتَهَدَتْ في اقتِسَامِ جُملَتِهِ

ينقل البيتان صورتين متناقضتين: الصورة الأولى تتعلق بالشاعر الذي فقد راحة البال ومعها النوم مما جعله يحس بأن الوقت يمر ببطء، طال معه النهار والليل بل يمكن القول إن حياة الشاعر أضحت نهارا متصلا، أما الصورة الثانية، فتكشف الحياة التي يعيشها البرغوث هانئا متنعما في جسد الشاعر، يتحسس كل موضع فيه ليغرز خرطومه، ويبدو أن الشاعر لم يجد وسيلة للتخلص من هذه الحشرة الطفيلية أو التخفيف من وطأتها، ولذلك هنأ البرغوث على ما يعيش فيه من رغد، فقد توفر للبرغوث المأكل و المسكن بينما يعيش الشاعر حياة بائسة عكستها جميع قصائده التي عبر فيها عن «فقره وإقلاله، وأنه لا يقتني حتى ما يكسو به السرير الذي ينام عليه، وأنه لا يملك من المتاع شيئا إلا حصيرة»[2].

ولم يكن الفقراء المستهدفين الوحيدين من طرف البق والبرغوث، فقد كانت دماء الموسرين أيضا وجبة مفضلة لهما، وعن ذلك يقول أبو هلال العسكري[3]:

ومِنْ بَرَاغِيثَ تَنفِي النَّوْمَ عَنْ بَصَرِي كَأَنَّ جَفنِي عَن عَيْنِي قَصِيرَانِ
يَطْلُبْنَ مِنِّي ثَأْرًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ إلاَّ عَدَاوَةَ سُودَانَ لِبِيضَانِ

شبه أبو هلال علاقته مع البراغيث بالعلاقة التي كانت تربط زنوج بغداد بأسيادهم من العرب، أي علاقة عداوة وصراع، كان أحد مظاهرها ثورة الزنج على الخلفاء العباسيين الذين تمكنوا، بعد جهد كبير، من إخماد ثورة العبيد، ويبدو أن البراغيث السود لم يهدأ لها بال، فقررت الثأر من العنصر العربي الذي يمثله أبو هلال العسكري. وقد استحضر أحد الأعراب سواد البراغيث في سياق شكواه منها حيث يقول:

أَرَّقَنِي الأُسَيْوِدُ الأَسَكُّ لَيْلَةَ حَكٍّ لَيسَ فِيهَا شَكُّ
أَحُكُّ حَتَّى مَالَهُ مَحَكُّ أَحُكُّ حَتَّى مِرْفقي مُنفَكُّ

إن محور البيتين هو عملية الحك التي صدرت عن فاعلين مختلفين؛ ففي البيت الأول، كان الحك صادرا عن البرغوث الأسود، وقد نتج عن ذلك حك الحشرة الطفيلية حك آخر، هو حك الأعرابي جلده نتيجة

الألم الذي ألم به، وإذا كان حك البرغوث محددا في الزمن، فإن حك الأعرابي متواصل، لم يتوقف طيلة الليل، مما أرقه بل إن الحك المتواصل أنهك الأعرابي حتى أنه لم يعد يستشعر وجود مرفقه.

وأهم ما يميز البراغيث هو تعاونها وتلاحمها، فهي لا تهاجم بني البشر إلا مجتمعة، وعن ذلك يقول ابن أيبك الصفدي[4]:

أَشْكُو إِلَى الرَّحمَنِ مَا نَالَنِي مِنَ البَرَاغِيثِ الخِفافِ الثِّقَالِ
تَعَصَّبُوا بِاللَّيلِ لما دَرُوا أَنِّي تَقَنّعْتُ بِطَيْفِ الخَيَالِ

إن خفة وزن البراغيث لا تنقص، بأي حال، من شدة وطأتها، فهي تهاجم عصبة عندما يرخي الليل سدوله، وهي اللحظة التي يكون فيها الشاعر خائر القوى بعد نهار طويل من التعب، وهكذا يجد الشاعر المتعب نفسه وحيدا في مواجهة جماعة من البراغيث تتفادى ضربات الشاعر، مستفيدة من وزنها الخفيف ومن لونها الأسود، ولذلك لم يجد الشاعر، أمام هذا العدو الصغير، من حل سوى بث شكواه إلى الله، داعيا إياه بأحد أسمائه الحسنى، وهو الرحمن رغبة في أن يمن عليه بالرحمة، وأن يخفف عنه من وطأة الحشرات الطفيلية التي لا ترحم العباد عندما تتسلط عليهم ليلا لتحرمهم النوم. وهو ما جعل العديد من ضحاياها يؤكدون على أن الأمر لا يتعلق بالتطفل بل بحرب تجمع طرفين غير متكافئين في الظاهر، يقول أحد الأعراب[5]:

ظَلَلْتُ بِالبَصْرَةَ فِي مَرَاشِ وَفِي بَراغِيثَ أَذَاهَا فَاشِي
مِنْ نَافِرٍ مِنهَا وَذِي خَرَاشِ يَرْفَعُ جَنْبِي عَنِ الفِرَاشِ
فَأَنَا فِي حَرْبٍ وَفِي تَخْرَاشِ يَتْرُكُ فِي جَنْبِي كَالحَوَاشِي

لقد استشعر الأعرابي أنه يعيش حياة لا هدوء فيها؛ فنهاره سعي دائم لطلب قوت يومه، أما ليله فمواجهة مستعرة مع البراغيث التي اتخذت من فراشه ساحة حرب، ولذلك افتقد الأعرابي، بعد يوم حافل بالمشاق، الراحة الهدوء والطمأنينة بعدما فاجأه طفيلي أبى إلا أن ينهكه ويعكر عليه صفوه.

لا تكتفي البراغيث بالهجوم جماعة بل قد تعقد حلفا مع أحد بني جلدتها وهو البق، حيث يوحدهما هدف واحد، وهو حرمان الإنسان لذة النوم، يقول الزعفراني[6]:

وَيَا وَيلِي مِنَ اللَّيلِ المُوَافِي فَإِنِّي حِينَ يُطْرِقُ فِي جِهَادِ
لَهُ جَيْشَا بَرَاغِيثٍ وَبَقٍّ يُطِلُّ عَلَيَّ إِطْلَالَ الجَرَادِ
وَلِي فَرْشٌ هِيَ الميدَانُ فِيهِ بَرَاغِثُهُ وَخَمشِي فِي طِرَادِ
وَبَقٌّ فِعْلُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ فِعَالُ النَّارِ فِي يُبسِ القَتَادِ

لقد أضحى موعد النوم مؤرقا للشاعر، فليله حرب وجهاد ضد جيش جرار يهجم هجوم الجراد، ويبدو من خلال البيت الأول أن الأمر يتعلق بجهاد مستمر، فالشاعر يترقب كل ليلة أن يواجه الطفيليات التي احتلت فراشه، وأضرمت النار في جسده نتيجة الحك المتواصل.

1-2-الفخر بالقمل والبرغوث

جرت عادة الشعراء الافتخار بمجموعة من الخصال، منها الشجاعة وعراقة النسب والجود وإغاثة الضعيف والوفاء، وقد يحدث أن يفتخر الشاعر بقبيلته، وقلما افتخر أحدهم بما يملكه من حيوان لكن البعض فضل الافتخار بأحقر دابة على وجه الأرض، يقول علاء الدين بن إبراهيم الكندي[7] :

بَرَاغيثُنا فِيهِم جَراءَةٌ فَبِالأَسْرِ وَالقَتْلِ لاَ يَرْجِعُونَا
كَثِيرُو الأَسَاةِ مَعَ أَنَّهُم قَلِيلاً مِنَ اللَّيلِ مَا يَهْجَعُونَا

إن ما يميز براغيث قوم الشاعر هو إقدامها وعدم خوفها من أسر الأعداء لها أو قتلها، فهي تأبى إلا أن تهاجمهم وتوقع بهم الأذى مهما كلفها ذلك من عواقب، وهي لا تهاجم الأعداء إلا ليلا، ولا يمنعها السهر من الفتك بهم. وإذا كان تنكيل هذه الطفيليات بالأعداء شديدا، فلا ريب أن بأس قوم الشاعر سيكون أعظم وأقوى.

ويبدو أن احتقار الناس للبراغيث جعلهم يغفلون سطوتها وبأسها، وعن ذلك يقول الشاعر[8]:

بَرَاغِيثُ تَسْرِي فِي الظَّلاَمِ كَأَنَّهَا حَرَامِيَّةٌ مِن بَيضِهَا يُسْفَكُ الدَّمُ
قَوَارِضُ تَأْتِينِي فَيَحْتَقِرُونَهَا وَقَد يَمْلَأُ القَطْرُ الإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

وقد ورد الإعلاء من شأن البراغيث في غرض شعري آخر هو المدح، ومن المعلوم أن الشعراء كانوا يتوجهون بمدحهم إلى الملوك والسادة،كما قد تكون القبيلة محورا للمدح حيث يعدد الشعراء ما وجدوا فيها من « كرم الجوار، متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم»[9]، ولم يسبق أن مدح أحدهم حشرة أو دابة لكن أحدهم خرج عن هذا النهج فقال[10]:

لاَ تَسُبَّ البَرغُوثَ إِنَّ اسْمَهُ بِرٌّ وَغَوْثٌ لَكَ لَوْ تَدْرِي
فَبِرُّهُ مَصُّ دَمٍ فَاسِدٍ وَغَوثُهُ الإِيقَاظُ فِي الفَجْرِ

حاول الشاعر تغيير الصورة السلبية المتوارثة عن البرغوث، والتي جعلت الكثير من الناس يلعنونه كلما ذكر اسمه بحكم الأذى الذي يلحقه بهم، فالشاعر تنبه إلى أن البرغوث لا يعدم فوائد عديدة، فعندما يغرز خرطومه ليمتص دم الإنسان، فإنه يخلصه من السموم التي تراكمت في بدنه، فيكون فعل البرغوث مشابها

للحجامة في فوائدها، أما المزية الثانية التي جعلت الشاعر يثني على البرغوث فهي أن هذه الحشرة الطفيلية توقظ الناس لأداء صلاة الصبح، فلولا البرغوث، لضيع الناس تلك الصلاة، ولفاتهم ثوابها، ومن تم ففعل البرغوث لا يقل أهمية عن المؤذن للصلاة.

2-2-الهجاء بالقمل وبالبرغوث

احتل الشعر مكانة بارزة عند العرب القدماء، وإذا كان المدح محببا إلى نفوسهم، فإنهم كانوا-بالمقابل- يأنفون من الهجاء بل كانوا شديدي الخوف منه لأنهم كانوا يعتقدون «بيت الهجاء متضمنا قوة خفية، ولعنة تصيب من تحل به»[11]، ورغم أن الإسلام قد قضى على مثل هذه المعتقدات، فقد ظل العرب يخشون الهجاء، ويهابون شعراؤه لأن وقعه في النفوس كان مؤلما، كما أنه كان يسلبهم محاسنهم التي يفتخرون بها، فضلا عن أنه يفضح مثالبهم. وكان شعراء الهجاء يركزون، غالبا، على الجوانب الأخلاقية والنفسية، وفي هذا السياق، ومنهم من وظف الحيوانات في الهجاء، فشبهوا الرجل بالكلب والقرد والحمار، ومنهم من اتخذ الحشرات الطفيلية مدخلا للهجاء، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في وصف حال أبي العلاء العقيلي الذي قال فيه أحدهم[12]:

وَإِذَا مَرَرْتَ بِهِ مَرَرْتَ بِقَانِصٍ مُتَصَيِّدٍ فِي شُرقَةِ مَقْرُورِ
لِلْقَمْلِ حَولَ أَبِي العَلاَءِ مَصَارِعُ من بَينِ مَقتُولٍ وَبَينَ عَقِيرِ
وَكَأَنَّهُنَّ لَدَى خَبُونِ قَمِيصِهِ فَذٌّ وَتَوْءَمُ سِمْسِمٍ مَقْشُورِ
ضَرْجِ الأَنَامِلِ مِنْ دِمَاءِ قَتِيلِهَا حَنِقٍ عَلَى أُخرَى العَدُوِّ مُغِيرِ

نقل الشاعر صورة هزلية عن أبي العلاء العقيلي، وهي صورة مناقضة لحياة الخلفاء،ة فقد اعتاد هؤلاء الخروج إلى الغابات و الصحاري لاصطياد الوحش والضبي، تساعدهم في ذلك كلابهم المدربة وبعض الطيور الكاسرة، أما أبو العلاء فلم يكلف نفسه عناء التحرك من مكانه، فهو يتربص بالقمل الذي يعيش في جسده، ولم يكن أبو العلاء، في صيده، محتاجا إلى سلاح أو حيوان مفترس كي يعينه على الإيقاع بالفريسة، فالأنامل تكفي لقتل الصيد، ويبدو أن شهوة أبي العلاء للصيد أو القتل لا حدود لها، فهو ما ينفك يقتل مجموعة من القمل حتى يهجم على جماعة أخرى. وبذلك يغدو أبو العلاء أشبه بسفاح نذر نفسه لقتل القمل، وهي صورة ساخرة تنفي عن المهجو صفة العقل، كما أنه تكشف الفراغ الذي كان يعاني منه في حياته.

وتحضر صورة صيد القمل عند الشاعر أي نواس الذي هجا شخصا يدعي أيوب الفارض، وهو رجل كان يجلس في مسجد البصرة حيث قال عنه[13]:

مَنْ يَنَأَ عَنْهُ مَصَادُهُ فَمَصَادُ أَيُّوبَ ثِيَابُهُ
يَكْفِيهِ مِنْهَا نَظْرَةٌ فَتَعلُ مِنْ عَلَقٍ حِرَابُهُ
لِلَّهِ دَرُّكَ مِن أَبِي قَنْصٍ، أَصَابِعُهُ كِلاَبُهُ

إن كثرة جلوس أيوب الفارض بالمسجد وملازمته له لم تكن بغرض الذكر أو التعبد بل كان الغرض منه هو التربص بالقمل والبرغوث اللذين نصب لهما أيوب ثيابه شركا لهما، متخذا أصابعه كلابا لافتراسها وقتلها.

اتخذ فريق آخر من الحشرات الطفيلية وسيلة لهجاء قبائل وليس أفرادا، وكان الهدف من هذا الهجاء هو الحط من قيمة القبيلة، وتنفير الناس من زيارتها، فقد كانت الأعراب تتجنب النزول ببعض القرى لاعتقادهم أنها«موبوءة بالأمراض التي تضر بصحتهم، وتؤذي مواشيهم»[14]، وقد استثمر الشاعر سلامة بن الجندل هذا الاعتقاد لإقناع الناس بتجنب زيارة قبيلة سدير، وعن ذلك يقول[15]:

أَبَى القَلْبُ أَنْ يَأْتِي السَّديرَ وَأَهْلَهُ وَإِنْ قِيلَ: عَيشٌ بالسَّدِيرِ غَرِيرُ
بِهِ البَقُّ والحُمَّى وأُسْدٌ خَفِيَّةٌ وَعَمرُو بْنُ هِندٍ يَعْتَدِي، وَيَجُورُ
فَلاَ أُنذِرُ الحَيَّ الأُولَى نَزلُوا بِهِ وإِنّي لِمَنْ لَمْ يأتِهِ لَنَذيرُ

إن المزايا التي تتمتع بها قرية السدير لم تمنع الشاعر تحذير الناس من زيارتها، ذلك أنهم لا يعلمون الأخطار والمضار التي توجد بهذه القرية، وأغلبها أخطار غير ظاهرة، وفي مقدمتها البق الذي استهل به الشاعر البيت الثاني، فجعله مقدما على أخطار أخرى، يفترض، أنها أشد فتكا، كما هو الحال للأسود أو ظلم عمرو بن هند، وهذا التقديم له دلالته من حيث أن النفوس تنفر من البق، كما أن خطر الأسود أو حاكم سدير هو خطر محدود في الزمن، لا يتجاوز فترة الإقامة بالقرية، وهو أيضا خطر محدود يمس الزائرين فقط خلافا للبق الذي سيتعدى أذاه الزائرين إلى أناس آخرين ممن يخالطونهم، كما أنهم سيعانون منه لفترة طويلة، ومن مظاهر تلك المعاناة الأرق الذي إذا استمر أياما معدودة، لتمنى الإنسان الموت كي يتخلص منه.

ومن هجاء المدن الذي وظفت فيه الحشرات الطفيلية قول الشاعر آدم بن عبد العزيز[16]:

هَنِيئاً لأَهلِ الرَّيِّ طِيبُ بِلاَدِهِم وَأَنَّ أَمِيرَ الرَّيِّ يَحيَ بْنُ خَالِدِ
تَطَاوَلَ فِي بَغدَادَ لَيلِي وَمَنْ يَكُنْ بِبَغدَادَ يَلبَثْ لَيْلَهُ غَيرَ رَاقِدِ

بِلاَدٌ إِذَا جَنَّ الظَّلاَمُ تَقَافَزَتْ بَرَاغِيثُهَا مِنْ بَينِ مَثْنَى وَوَاحِدِ

نقل الشاعر صورتين متناقضاتين: الصورة الأولى تتعلق بأهل الريِّ الذين ينعمون بحياة هنيئة في ظل حاكمها يحي بن خالد، أما الصورة الثانية، فتتعلق بمأساة الشاعر في بغداد بسبب البرغوث الذي قض مضجعه، وحرمه النوم، وهذا تعريض بعاصمة الخلافة العباسية التي يفترض أن تتوفر فيه أسباب العيش الرغد، وأن يسهر عمالها وولاتها على تسيير أمورها على أحسن وجه طالما أنها مكان إقامة الخليفة. وقد هجا شاعر آخر بغداد وأهلها قائلا[17]:

لَقَد عَلِمَ البُرغوثُ حِينَ يَعَضُّنِي بِبَغدَادَ إِنِّي بِالبِلاَدِ غَرِيبُ

يتبين أن برغوث بغداد يستطيع تمييز الغرباء بدقة، حتى إذا تم له ذلك، تسلط عليهم فآذاهم دون غيرهم من الناس، ولذلك كانت معاناة الشاعرة مضاعفة، فهو يعيش تحت وطأة الغربة، كما أنه يعاني من البراغيث التي تقتات على دمه وتمنعه النوم، وكان الأحرى أن يحظى الغريب بمعاملة أحسن وهو البعيد عن أهله وديارة، ويعد هذا قدحا لبغداد وسكانها الذين لم يحسنوا وفادة الغريب أو على أقل تقدير أن يوفروا دورا نظيفة يجد فيها الغريب راحته، ولا شك أن تداول هذا البيت المفرد على ألسنة الناس من شأنه نقل صورة سلبية عن بغداد التي قد يتجنب البعض المكوث بها خوفا من براغيثها التي تتربص بالغرباء.

2-البرغوث و القمل في النثر العربي القديم

2-1-في حدي القمل و البرغوث

شكلت الحشرات الطفيلية أحد الموضوعات داخل المدونة النثرية العربية القديمة. ولاريب أن الاهتمام الذي خصت به تلك الطفيليات يبقى أقل من ذلك الذي نالته غيرها من الحيوانات، لكن ذلك لم يمنع الأدباء من محاولة الإحاطة بمختلف الجوانب المتعلقة بالحشرات الطفيلية، وكانت أول خطوة في هذا المجال هي وضع حد وتعريف لها.

أ- حد القمل

يقول كمال الدين الدميري: «القمل: معروف، واحدته قملة. ويقال لها أيضا قمال. قاله ابن سيده، والقمل جمع قملة، وقد قمل رأسه بالكسر قملا، وكنية القملة أم عقبة، وأم طلحة، ويقال للذكر أبو عقبة، والجمع بنات عقبة وبنات الدروز، والدروز الخياطة، سميت بذلك لملازمتها إياها. وقملة الزرع دويبة تطير كالجراد في خلقة الحلم، وجمعها قمل، قاله الجوهري»[18]، وهناك من ذهب أبعد من ذلك، فميز بين ذكور القمل وإناثها، وهذا حال إياس بن معاوية الذي «زعم أن الصّئبان ذكورة القمل والقمل إناثها، وأن

القمل من الشّكل الذي تكون إناثه أعظم من ذكورته»[19]، ولم يقدم إياس أي حجة تدعم التصنيف الذي اقترحه، وهو تصنيف خاطئ لأن الصئبان هي بيض القمل، ومفردها صؤابة [20]، وهناك من ادعى أن القمل أنواع مختلفة، وأنها ليست على قدر واحد من الخطورة؛ فإذا كان أذى قمل القرى لا يتجاوز العض وامتصاص الدم، فإن قملة النِّسر أشد خطورة «وهي تكون بالجبل، فإنها إذا عضّت قتلت»[21].

إن صغر حجم القمل لم يمنع بعضهم من وصفها حيث ادعى البعض أن «القملة تكون في رأس الأسود سوداء، ورأس الأبيض الشعر بيضاء، وتكون خصيفة اللون، وكالحبل الأبرق إذا كانت في رأس الأشمط . وإذا كانت في رأس الخاضب بالحمرة كانت حمراء، وإن كان الخاضب ناصل الخضاب كان في لونها شكلة، إلا أن يستولي على الشعر النّصول فتعود بيضاء»[22]، أي أن القمل يتخذ لون شعر رأس الإنسان الذي يعيش فيه، وعلى هذا النحو تشترك القملة مع الحرباء في القدرة على اكتساب لون المادة التي تلمسها.

ب– حد البرغوث

وضع ابن شهيد الأندلسي وصفا طريفا للبرغوث لكنه وصف جامع، يقول الأديب في وصف البرغوث: «أسودُ زنجي، وأهيٌّ وحشي؛ ليس بوانٍ ولا زُميل، وكأنه جُزء لا يتجزأ من ليل؛ أو شُونيزة، أوثقتها غريزة؛ أو نقطةُ مِداد، أو سويداءُ قلبِ قُراد؛ شُربه عب، ومشيه وثب؛ يكمنُ نهاره، ويسري ليله؛ يدارك بطعنٍ مؤلم، ويستحلُّ دم كل كافرٍ ومُسلم؛ مُساورٌ للأساورة، يجُرُّ ذيله على الجبابر، يتكفر بأرفع الثياب، ويهتكُ ستر كل حِجاب، ولا يحفل ببوَّاب؛ مناهل العيش العذبة، ويصلُ إلى الأحراج الرَّطبة، لا يمنعُ منه أمير، ولا ينفعُ فيه غيرةُ غيور، وهو أحقر كل حقير؛ شرُّه مبثوث، وعهده منكوث، وكذلك كلُّ بُرغُوث، كفى نقصاً للإنسان، ودلالةً على قُدرةِ الرَّحمَن»[23]. يلاحظ أن الأديب أثبت للبرغوث جملة من الصفات، أبرزها سواد اللون، وسكونه في النهار، وتحركه في الليل، وهو يقفز ولا يمشي، كما أنه حشرة طفيلية لا تطلب الإذن بل تهجم على الإنسان كيفما كان وضعه الاجتماعي. وهناك من أسند إلى البرغوث بعض الصفات الإنسانية، ومن بينها أن «البرغوث خبيث، فمتى أراد الإنسان أن ينقلب من جنب إلى جنب، انقلب البرغوث، واستلقى على ظهره، ورفع قوائمه فدغدغه»[24]، ومن الإشارات اللطيفة في وصف البرغوث ما أورده الجاحظ حيث نقل على لسان أحدهم بأن «البرغوث في صورة الفيل. وزعموا أنها تبيض وتفرخ، وأنهم رأوا بيضها رؤية العين»[25]. إن هذا الوصف الذي أورده الجاحظ يثير مجموعة من الأسئلة، من أبرزها كيف استطاع الواصف رؤية البرغوث؟ وكيف رأى بيضها؟

يمكن القول إن الوصف الذي نقله الجاحظ مجرد ادعاءات، فليس هناك ما يبرر وجود شبه بين أصغر حشرة وأضخم حيوان على وجه الأرض، وإذا كان من العسير رؤية البرغوث، فإن رؤية بيضه أصعب بكثير، ويبدو أن صاحب هذا الخبر إنما أراد أن يثبت أن المتأخرين قادرون على وصف أدق الأمور التي استعصت على الأدباء القدامى الذين ظل مجال إدراكهم البصري محصورا في الصحراء وحيواناتها، بينما استطاع المتأخرون رصد أدق الأمور بما في ذلك عملية التوالد عند البراغيث، فقد زعم البعض أن القمل «تناكح وهي مستدبرة ومتعاظلة . وهي من الجنس الذي تطول ساعة كومها»[26].

وقد نقل الجاحظ عن بعض أصحابه أن براغيث بلاد أنطاكية« تمشي، وبراغيثهم نوعان :الأبجل والبقّ، ... فإنّ يحيى زعم أن البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقّا، كما يعرض الطيران للنّمل»[27]، وهذا رأي مخالف لما هو معروف بشأن البرغوث، فهذا الأخير-كما أشار إلى ذلك ابن شهيد- يثب أما أصحاب الجاحظ فادعوا أنه يمشي.

2-2-القمل والبرغوث:عوامل ظهورهما وكيفية الوقاية منهما

أ-عوامل ظهور القمل والبرغوث

أولى الإسلام النظافة أهمية بالغة سواء نظافة الظاهر أو الباطن، ولما كان الظاهر المجال الذي يدركه البصر، فقد كان التشديد على ضرورة إيلاء الفرد عناية كبيرة بنظافة بدنه وثوبه، ولم تخرج المدونة الأدبية التراثية- باختلاف فروعها- عن مضمار النصوص الدينية عند الحديث عن عوامل نشوء القمل والبرغوث، فربطت ظهورهما وانتشارهما بانعدام النظافة، ويلاحظ أن تلك المدونة لم تتوقف كثيرا عند عوامل نشوء البرغوث مقارنة بالقمل لكن هذا الأمر لا يعد نقصا أو تقصيرا لأن ما يجري على القمل يجري على البرغوث أيضا، ويرى البعض أن القمل «يتولد من العرق والوسخ إذا أصاب ثوبا أو بدنا أو ريشا أو شعرا، حتى يصير المكان عفنا »[28]، ولذلك كان القمل سريع الظهور عند مجموعة من الحيوانات كما هو الحال عند كل من « الدجاج والحمام، إذا لم يغتسل ويكن نظيف البيت. ويعرض للقرد»[29]. ولما كان الإنسان مشابها للقرد في العديد من الخصائص الفيزيولوجية، فإنهما يشتركان معا أيضا في العوامل المؤدية إلى ظهور القمل عندهما، وأهمها انعدام النظافة؛ فالقمل يظهر عند الإنسان على مستوى« الرأس وَالبدن ...وأكثر ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام، وبسبب الأوساخ، وإنما كان في رؤوس الصبيان أكثر لكثرة رطوباتهم، وتعاطيهم الأسباب التي تولد القمل»[30]، وهناك من يرى أن بعض العادات الغذائية تساعد على ظهور القمل، « أحدهما الإكثار من التّين اليابس، والآخر بخار اللّبان إذا ألقي على المجمرة»[31]، فإذا توفرت كل

هذه العوامل أو بعضها، أسرع القمل إلى الإنسان، وربما خرج من جلده« فإذا كان الإنسان قملا كان قمله مستطيلا، في شبيه بخلقة الديدان الصغار البيض» [32]، لكن توافر العوامل السابق لا يؤدي بالضرورة إلى ظهور القمل الذي « يعرض لثياب كل الناس إذا عرض لها الوسخ والعرق، والخموم، إلا ثياب المجذّمين، فإنهم لا يقملون»[33].

ب–الوقاية من القمل والبرغوث

يعد ظهور القمل والبرغوث مؤشرا على انعدام النظافة أو قلة العناية بها، وما إن تظهر هذه الحشرات الطفيلية حتى تنقلب حياة الفرد إلى جحيم، وهو ما عبر عنه الشعراء في بعض الأبيات حيث شكوا طول حرمانهم من النوم ذلك أن «البرغوث إذا عض، وكذلك القملة، فليس هناك من الحرقة و الألم ما له مدة قصيرة ولا طويلة» [34].

لم تكتف المدونة النثرية بالإشارة إلى عوامل ظهور القمل بل حددت بعض الطرق للتخلص من أذاه، فإذا « غسلت المرأة أصول شعرها بماء السلق منع القمل. ودهن القرطم إذا دهن به إنسان مات قمله، وإن غسل البدن بخل وماء البحر قتل القمل، وإذا مسح الرأس والبدن بزئبق مقتول بدهن سمسم منع القمل من الرأس والثياب»[35]، وإذا كان من اليسير التخلص من القمل، فإن التخلص من الإنسان الذي تشرب طبع القمل أمر جد صعب؛ فهناك نوع من البشر يكون «قمل الطباع، وإن تنظّف وتعطّر وبدّل الثياب»[36]، ويتعلق الأمر هنا بفئة من الناس عرفت باسم الطفيليين، وكان الرجل من هؤلاء، في بداية عهدهم «يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها»[37]، فكان ذلك يزعج صاحب الوليمة الذي لا يجد سبيلا إلى طرد الطفيلي كي لا يظهر بخيلا أمام الناس، فكان بذلك الإنسان المتطفل أشبه بالقمل الذي لا يستأذن الناس عندما يمتص دم أحد منهم، ويرتوي منه ثم ينتقل إلى آخر.

أما بالنسبة للبراغيث، فلم يجد الناس، في البداية، حلا لها سوى أن يقوم من يعاني من عضها بأن « يقتلها بالعرك والقتل، وإلى أن يقبض عليها، فيرمي بها إلى الأرض من فوق سريره، فيرى أنهنّ إذا صرن عشرين كان أهون عليه من أن يكنّ إحدى وعشرين... فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني، وجعلوها طويلة الأردان والأبدان فناموا مستريحين»[38]. ومن الطرق العجيبة للتخلص من البرغوث ما ذكره «أصحاب الخواص أن البرغوث إذا دخل في أذن أحد، ووضع الإنسان يده على سرّته أو أصبعه في سرته وقال: سبقتك فإن البرغوث يخرج منها»[39].

3–منافع القمل و البرغوث

شاءت الحكمة الإلهية أن يكون لكل مخلوق، على وجه الأرض، وظيفة محددة لا يؤديها سواه، ولذلك كان لكل كائن مزاياه وفوائده التي تضفي على وجوده قيمة وأهمية بما في ذلك الكائنات التي يتقزز الإنسان منها، والتي قد يعتقد أنها ضارة أو أن وجودها مثل عدمها، وما ذلك إلا لجهله بوظائفها، ومن بين تلك الوظائف أنها تشكل طعاما لغيرها من الموجودات، وهذا ما وقف عليه ابن فضلان في إحدى رحلاته حيث يقول: «ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد، فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل... وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل... فيقرض القمل بأسنانه. ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم، وكان يخدمنا، فرأيته وجد قملة في ثوبه فقصعها، بظفره، ثم لحسها وقال لما رآني :جيد»[40]. يعد القمل، إذن، أحد أطعمة الشعوب المتوحشة التي كانت تجد لذة في قرضه وقتله، وبذلك تكون الأدوار قد انقلبت عند تلك الشعوب حيث أصبح القمل غذاء بعد أن كان هو الذي يتغذى على دم الإنسان.

قد لا يخطر على البال أن القمل شديد النفع في مجال الطب بل في أدق وأصعب تخصصاته، يقول كمال الدين الدميري: « وإذا أردت أن تعلم هل المرأة حامل بذكر أم أنثى؟ فخذ قملة واحلب عليها من لبنها في كف إنسان، فإن خرجت القملة من اللبن فهي حامل بجارية، وإن لم تخرج فهي حامل بذكر! وإن احتبس على إنسان بوله فخذ قملة من قمل بدنه، واجعلها في إحليله فإنه يبول من وقته»[41]، ويبقى أحد ألطف استعمالات القمل هو اتخاذه وسيلة للهو، يقول الجاحظ:«ورأيت مرة أنا وجعفر بن سعيد، بقالا في العتيقة وإذا امرأته جالسة بين يديه، وزوجها يحدثها وهي تفلي جيبها وقد جمعت بين باطن إبهامها وسبابتها عدة قمل ،فوضعتها على ظفر إبهمها الأيسر،ثم قلبت عليها ظفرها الأيمن فشدختها به، فسمعتُ لها فرقعة، فقلت لجعفر: فما منعها أن تضعها بين حجرين؟ قال : لها لذة في هذه الفرقعة، والمباشرة أبلغ عندها في اللذة. فقلت: فما تكره مكان زوجها ؟ قال: لولا أن زوجها يعجب بذلك لنهاها»[42]. إن الأمر، في هذه الحالة، لا يتعلق برغبة في التخلص من القمل، إذ لو كان الأمر كذلك لاستعملت المرأة حجرين لقتل القمل لكنها كانت تفضل استخدام أظافرها كي يحصل صوت الفرقعة الذي تلتذ المرأة وزوجها معا بسماعه، وكان بعض الرجال يجدون في قتل البراغيث والقمل تسلية كبيرة، فابتكروا طرقا غريبة في قتله، يقول الأصمعي: «رأيت أعرابيا بالبادية قد بسط كساه للشمس وهو يفتلي، فجعلت أنظر إليه، فكان يأخذ البراغيث ويدع القمل، فقلت له في ذلك، فقال: أبدأ بالفرسان وأرجع للخيالة»[43].

ويبقى أغرب مجال لتوظيف القمل هو مجال تفسير الأحلام، إذ تعد رؤيته مؤشرا على مجموعة من الأحداث التي ستقع للنائم في المستقبل، «فإذا كان في قميص جديد فإنه مال وهو للسلطان جند وأعوان، وللوالي زيادة في ماله. ومن رأى القمل في ثوب خلق، فهو دين يخشى زيادته، والقمل على الأرض قوم ضعاف، فإن دب إلى جانب إنسان فإنه يخالطهم، ومن رأى القمل وكرهه فإنه يرى أعداء ولا يقدرون له على مضرة، ومن رأى أنه قرصه القمل، فإن قوماً ضعفاء يرمونه بكلام، ومن حكه القمل، فلا بد أن يطالب بدين... ومن رأى قملة طارت من صدره فإن أجيره أو غلامه أو ولده قد هرب، والقمل الكثير مرض أو حبس» [44].

وهكذا يتضح أن كلا من القمل و البرغوث لا يعدمان منافع للناس، سواء أكان ذلك في الواقع أو في مجال الأحلام، وهذا ما يفسر العناية الكبيرة التي حظيت بها هذه الحشرات الطفيلية في المدونة النثرية.

خاتمة

كشفت الدراسة الحالية عن مجموعة من النتائج، أبرزها:

-أن القمل و البرغوث قد اقترن ورود ذكرهما في الشعر القديم في مجموعة من الأغراض، وهي الشكوى والمدح والفخر والهجاء؛

-سلط الأدب العربي القديم، شعرا ونثرا، الضوء على بعض الجوانب الإيجابية للقمل والبرغوث، والتي لم يتنبه إليها العديد من الناس؛

-أجمع الشعراء والكتاب على أن أذى القمل والبرغوث لا يستهان به، ولذلك وقف العديد منهم عاجزين أمام هاتين الحشرتين الصغيرتين؛

-كانت المدونة النثرية أكثر دقة بخصوص وأكثر إحاطة بالقمل والبرغوث من حيث تعريفهما ووصفهما وتحديد إيجابياتهما وسلبياتهما؛

هوامش

[1] أبو الشمقمق، الديوان، تحقيق واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1، 1995، ص32.

[2] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، 2008، ج3، ص438.

[3] أبوهلال العسكري، ديوان المعاني، تحقيق حمد حسن بسج، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1،1994، ص 501.

[4] شهاب الدين الأبشهي، المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ، دار الأرقم ، بيروت، 2016، ص344.

[5] يوسف بن عبد الله القرطبي، بهجة الجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس،تح محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية-بيروت،ج2، 2008، ص98-99.

[6] أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد مفيد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ج3، ص 412.

[7] صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، أعيان العصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون،ط1،المطبعة العلمية، دمشق،1998، ج2، ص389

[8] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[9] شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص210.

[10] محمد بن أحمد الحنبلي، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ج2، ص 38.

[11] محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، 1948، ص59.

[12] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، مصطفى البابي الحلبي، 1965،ج5، ص 379.

[13] أبو نواس، الديوان برواية الصولي، تحقيق بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي،ط1 ،2010،ص 385.

[14] فاروق أحمد سليم، الانتماء في الشعر الجاهلي: دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص246.

[15] سلامة بن جندل، الديوان، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية-بيروت، ط2، 1987، ص238-239 .

[16] الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، تحقيق بشار عواد معروف،ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت، 2001، ج7،ص484.

[17] الجاحظ، مرجع مذكور، ص 387.

[18] كمال الدين الدميري،حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية-بيروت،ط2، 2007، ج2، ص353.

[19] الجاحظ، مرجع مذكور ، ص368-369.

[20] عطية، جرجي شاهين، معجم المعتمد [عربي/عربي] في ما يحتاج إليه المتأدبون والمنشئون من متن اللغة، دار الكتب العلمية، 2007، ص 355.

[21] الجاحظ، مرجع مذكور، ص392.

[22] المصدر نفسه، ص 198.

[23] ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، ط2، مكتبة صادر، بيروت، 1996، ص170-171.

[24] الجاحظ، مرجع مذكور، ص385

[25] المصدر نفسه، ص392.

[26] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[27] المصدر نفسه، ص 373.

[28] كمال الدين الدميري، مرجع مذكور، ص353.

[29] الجاحظ، مرجع مذكور، ص375.

[30] ابن القيم الجوزية، جامع الآداب، تحقيق يسري السيد محمد، ط1، دار الوفاء، 2000، ج3، ص207.

[31] الجاحظ، مرجع مذكور، ص372.

[32] المصدر نفسه، ص 374.

[33] المصدر نفسه، ص371.

[34] المصدر نفسه، ص397.

[35] كمال الدين الدميري، مرجع مذكور، ص 359.

[36] الجاحظ، مرجع مذكور، ص372.

[37] الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، دار ابن حزم، ط1، 1999، ص46.

[38] الجاحظ، مرجع مذكور، ص 374-373.

[39] الصفدي، مرجع مذكور، ص389.

[40] أحمد ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ط3، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص107-108.

[41] كمال الدين الدميري، مرجع مذكور، ص359.

[42] الجاحظ، مرجع مذكور، ص 383.

[43] محمد الغرناطي، حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة المضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر،ط1، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2020، ص64.

[44] كمال الدين الدميري، مرجع مذكور، ص359.